بحث تاريخي

دير القديس إرميا بسقارة

الأستاذة الدكتورة/ شيرين صادق الجندي
أستاذ الآثار والفنون القبطية
ورئيس قسم الإرشاد السياحي بكلية الآداب – جامعة عين شمس

يُعتبر دير القديس إرميا Saint Jeremiah من أهم الأديرة الأثرية القبطية المندثرة في مصر. وقد اكتشفه عالِم الآثار البريطاني كويبل J.E. Quibell في منطقة سقارة الأثرية في بدايات القرن العشرين بجوار المجموعة الهرمية لكل من الملك زوسر Zoser من الأسرة الثالثة والملك أوناس Ounas من الأسرة الخامسة في عصر الدولة القديمة.

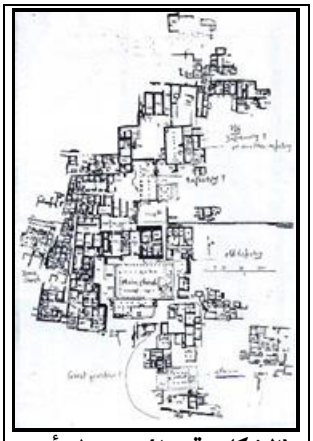

(الشكل رقم ١) مسقط رأسي لكل مباني دير القديس إرميا بسقارة بعد اكتشافه في مطلع القرن العشرين

وكتب هذا العالِم عن الدير بالتفصيل في مؤلفه "Excavations at Saqqara" شارحًا كل مبنى من مبانيه المختلفة وما عُثِر عليه فيها من تحف أثرية وفنية فريدة من نوعها في زخارفها وأساليبها الفنية المتنوعة التي تعكس سمات الفن القبطي وتأثره بالفن البيزنطي في ذاك العصر.

كما كتب علماء ومعماريون وباحثون آخرون عن هذا الدير ومبانيه الأثرية وما بها من كنوز تراثية فريدة أمثال فان كاوفينبرج P. Van Cauwenbergh (١٩١٤) وبيتر جروسمان P. Grossman في (١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٨٠، ١٩٩١) وراسار - ديبرج M. Rassart-Debergh (١٩٨١، ١٩٩١) وأيضًا سيفرين H.G. Severin (١٩٨٢) وفان مورسيل وهوبيرس P. Van Moorsel and M. Huybers (١٩٩١) ورينيه جورج كوكان وموريس مارتان René-Georges Coquin and Maurice Martin S.J. (١٩٩١).

وأكد يوحنا النقيوسي John of Nikiou في مؤلفه Chronicle of John, Bishop of Nikiou على أن الإمبراطور الروماني أناسطاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨م) كان واحدًا من أهم

الحكام الذين زاروا دير القديس إرميا بسقارة.

عمارة الدير:

ويتكوَّن الدير الذي يرجع إلى القرن السادس – السابع الميلادي من سور خارجي طويل، في داخله كل مبانيه والتي تشتمل على مجموعة كبيرة وقديمة من قلالي الرهبان إضافة إلى المائدة الأثرية. وفي منتصف مباني الدير، توجد الكنيسة الرئيسية ذات التخطيط المعماري البازيليكي أي أنها تتكون من قاعة مستعرضة narthex تفضي إلى البهو الأوسط المحاط باثنين آخرين في الشمال والجنوب ثم الخورس ثم الثلاثة هياكل الشرقية **(الشكل رقم ١).**

وأغلب مباني هذا الدير الأثري مدفونة حاليًا تحت الرمال بفعل عوامل التعرية. وبالتالي، فإن الزائر لمنطقة سقارة الأثرية لا يرى إلَّا بعض الأعمدة وقواعدها المبعثرة في الموقع الأثري للدير **(الشكل رقم ٢).**

(الشكل رقم ٢) موقع دير القديس إرميا بسقارة حاليًا

(شكل رقم ٣) الإنبل الحجري في دير القديس إرميا بسقارة

الفنون المكتشفة في الدير:

وتكمُن أهمية هذا الدير في كل ما عُثِر فيه من تُحف حجرية لعل من أهمها وأجملها أقدم إنبل حجري في مصر المسيحية **(الشكل رقم ٣).** وهو يتكوَّن من ستة درجات تؤدي إلى مقعد له مسند ظهر مرتفع تنتهي قمته بدائرة بداخلها محَّارة يتوسَّطها صليب صغير كرمز لقيامة السيد المسيح. ويحيط بهذه المحَّارة على إطارها الخارجي شريط كتابي ضيق باللغة القبطية يشير إلى الآب والابن والروح القدس بالإضافة إلى كلمة

"آمين" أي أجب أو استجب.

(الشكل رقم ٤) تاج عمود حجري عُثِر عليه في دير القديس إرميا بسقارة

إضافة إلى ما تقدَّم، عُثِر في دير القديس إرميا بسقارة على مجموعة كبيرة من الأعمدة وتيجانها التي تتنوَّع زخارفها ما بين أشكال الطيور وبالأخص الطاووس وبعض أشكال الحيوانات كالحَمَل والزخارف النباتية لا سيما أوراق وعناقيد العنب **(الشكل رقم ٤)** التي ترمز إلى السيد المسيح وزهرة الأكانثس والأغصان وكذلك بعض الزخارف الهندسية إلى جانب بعض الرموز المسيحية. وتظهر بقايا الطلاء القديم على بعض تيجان هذه الأعمدة.

(الشكل رقم ٥) جرَّة فخارية بالمتحف القبطي القرن السادس الميلادي

كما عُثِر في هذا الدير أيضًا على كثير من التحف الخشبية كالأدوات الموسيقية والتحف الفخارية كالأزيرة والأفاريز والقارورات وغيرها من أدوات استعمالات الحياة اليومية. ولعل من أجمل الجرار التي استُخدِمَت لتخزين الحبوب جرة بيضاوية الشكل في حالة جيدة من الحفظ ولها مقابض وترتكز على قاعدة صغيرة. ويظهر على الجزء العلوي من بدنها بعض الزخارف النباتية البسيطة المطلية بالمداد الأسود وتتوسَّطها سمكة كبيرة **(الشكل رقم ٥).**

ومن أهم الرسومات الجدارية التي عُثِر عليها في دير القديس إرميا في سقارة رسم جداري غير منتظم الشكل قوام زخرفته موضوع من الموضوعات الزخرفية الدينية المقتبسة من الكتاب المقدَّس، وهو ذبيحة إسحق حيث يظهر إبراهيم واقفًا من الأمام بحجم كبير وهو ممسكًا بسكين كبير في يديه. وعلى يساره، وقف إسحق وهو مكتوف اليدين خلف ظهره على ما يشبه مذبح حجري متدرِّج. وعلى يمين إبراهيم، يظهر حيوان الفداء من الجانب

بالقرب من شجرة يظهر خلفها ملاك واقفًا أيضًا من الأمام. ولا يمكن رؤية رؤوس الأشكال الآدمية، فكلها في الأجزاء العلوية المفقودة لهذا الرسم الجداري. وعلى النصف السفلي لهذا التصوير الجداري، صفان من الزخارف النباتية خضراء اللون يليها بعض الزخارف الهندسية المجدولة والملونة باللونين الأصفر والأخضر الفاتح **(الشكل ٦).** وترجع كل هذه التحف الأثرية إلى القرنين السادس والسابع الميلادي، وتعكس زخارفها تأثيرات الفن البيزنطي التي تظهر في ثنيات وتفاصيل ملابس الأشخاص وكذلك في انقسام الأغصان النباتية.

(الشكل رقم ٦) رسم جداري لذبيحة إسحق بالمتحف القبطي – القرن السادس/ السابع الميلادي

الخاتمة

وختامًا، يُعتَبَر دير القديس إرميا في سقارة من أهم الأديرة الأثرية القبطية التي اكتُشِفت في مطلع القرن العشرين في حفائر واحدة من أهم البعثات الأثرية التي عملت في مصر حينذاك. وقد وصلنا من هذا المبنى الأثري الهام كثير من التحف الحجرية والخشبية والفخارية إلى جانب الرسومات الجدارية البديعة والمنفَّذة بأسلوب الفريسكو والمرمَّمة حديثًا والتي تُظْهِر في زخارفها موضوعات دينية وزخارف نباتية وهندسية التي تتميَّز بتناغم ألوانها. وهي تملأ بعض قاعات المتحف القبطي بالقاهرة. غير أن الحاجة أصبحت ماسة لإعادة اكتشاف هذا الدير الهام وحماية مبانيه المختلفة من التلف والضياع والاندثار حفاظًا على الهوية المصرية وتراثها النفيس والذي لا مثيل له في بلد آخر.